

جامعة الجزائر

وزارة التعليم العالي

معهد التاريخ

دع ١١١/٢

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - بجامعة الجزائر



السنة 1406هـ
م 1986

العدد الثاني

جامعة الجزائر

وزارة التعليم العالي

معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - بجامعة الجزائر



السنة 1406هـ
م 1986

العدد الثاني

أولاً : دراسات وأبحاث :

- 8 - التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة. محمد البشير شني
- 19 - موقف الكاهنة من الفتح الإسلامي محمد بن عميرة
- 29 - الفن في مسجد قرطبة مظفر عزت الشيخ قادر
- 39 - ارشاد الحيران في أمر الداي شعبان مولاي بلحميسي
- 57 - العلاقات بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانعكاسها على المقاومة الجزائرية في أوائل عهد الاحتلال ناصر الدين سعيدوني
- 78 - المسائل الأفريقية في السياسة الأوروبية قبيل الحرب الكبرى: اتفاق 4 نوفمبر 1901 الفرنسي - الألماني حول المغرب والكونغو جمال قنان

ثانيا : عرض قضايا تاريخية وأطروحات جامعية :

- 103 - جانب من القضية العربية المعاصرة: البترول والأوبك مصطفى هشماوي

- 120 - الريف القسنطيني اقتصاديا واجتماعيا في أواخر العهد العثماني للطالبة فلة القشاعي المولودة موساوي
- 125 - دور أسرة البرامكة في التاريخ الإسلامي: في تاريخ الخلافة العباسية بشار قويدر

ثالثا : تقديم مخطوطات ووثائق وبيبلوغرافيا :

- 134 - دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لآبي راس الناصري محمد سي يوسف
- 156 - قائمة أولية بيبليوغرافية التبادل التجاري لاقطار المغرب العربي في العهد العثماني «القسم الأول» ناصر الدين سعيدوني
- 165 - نشاط معهد التاريخ للسنة الجامعية 1986/1985.

رابعا : قسم الدراسات باللغة الأجنبية

- 168 An Introduction to the Origins of Algeria's African Policy

By Khirdine Hamadi

موقف الكاهنة من الفتح الاسلامي

محمد بن عميرة

تعتبر الكاهنة من أهم الشخصيات التي كان لها دور بارز في الاحداث التي عرقتها بلاد المغرب أثناء عملية الفتح الاسلامي، وقد تعرضت لها أبحاث كثيرة، لكن قلة المعلومات الواردة بشأنها في المصادر لم تسمح لاصحاب تلك الأبحاث بتغطية وتوضيح جوانب كثيرة من تاريخها.

والهدف من وراء هذا العمل هو محاولة توضيح بعض الجوانب الغامضة من هذا التاريخ اعتمادا على استنتاجات تتماشى مع المنطق بقدر الامكان، وهي طريقة تفرض نفسها طالما لم يعثر لها على بديل أي معلومات من مصادر موثوق بها. وتتعلق الاستنتاجات الجديدة هنا باحتمال مساهمة الكاهنة في التصدي للمسلمين أثناء ولاية عقبة بن نافع الثانية وكذلك باحتمال اسلام ابنها على يد خالد بن يزيد القيسي قبل المعركة بينها وبين حسان بن النعمان، بالإضافة الى التوقف أمام بعض المسائل كقضية تبني الكاهنة لخالد بن يزيد. لكن علينا قبل كل شيء أن نتعرف عن هذه الشخصية الغامضة بقدر الإمكان.

- من هي الكاهنة؟

هي داهيا بنت ثابتة (أو ثابتة أو ماثية أو تيقان)، سميت الكاهنة لما كانت تُخبر به قومها بأشياء من الغيب، وليس هناك ما يؤيد تاريخيا قول قوته Gautier «ان الكاهنة معناها ساحرة وعرافة باللغة العبرية وربما باليونانية وليس بالعربية»⁽¹⁾، بل

ليس هناك ما يمنع منطقيا ان يكون العرب هم الذين أطلقوا عليها هذه التسمية ، ولا شك ان اجتihad قوتى هنا كعادته يهدف الى محو أي أثر عربي مها كان تافها من تاريخ المغرب خدمة لسياسة بلده آنذاك المبينة على مبدأ «فرق تسد».

ولا يعرف عنها قبل الفتح الاسلامي وأثناءه سوى أنها كانت تحكم قبيلة جراوة البرية بجبل أوراس. وقد عاشت مائة وسبعا وعشرين سنة، قضت منها خمسا وستين في الحكم، الذي توصلت إليه على حساب أبنائها الثلاثة، الذين ورثوا الحكم عن سلفهم، اذ سيطرت عليهم أولا، ثم سيطرت على قومها بهم، ونجحت في إنجاز مهمتها تلك بفضل «ما كان لها من الكهانة والمعرة بغية أحوالهم وعواقب أمورهم».

وتذكر بعض المصادر أن جراوة قد تهودت قبل الاسلام لكن الباحثين في تاريخ المغرب لم يقتنعوا بذلك وراح بعضهم يشك في الأمر بينما راح البعض الآخر ينفيه تماما، وسبق للمشكك مطروحا طالما لم يعثر على دليل قاطع يؤيده أو ينفيه. فما يخص تاريخ الكهانة السياسي والعسكري يتطلب البحث فيه العودة الى ولاية عقبة الثانية⁽¹⁾ التي توغل أثناءها في بلاد المغرب متجعا طريق باغاية فالسن أو بليش قديمة أذنة، حيث مر بوادي السهر الذي يبعد عنها بثلاثة أميال ومن ثم انجه الى تيرت فجبال درن (أي جبال المصامدة)، ومنها الى طنجة فالسوس الأدنى وبعدها السوس الأقصى ثم قفل راجعا.

وفي حديثه عن هذا التوغل ذكر ابن عبد الحكم ان ابن الكهانة البربري خرج «على أثر عقبة كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكهانة فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة الى السوس ولا يشعر بما صنع البربري، فلما انتهى عقبة الى البحر أفحم فرسه حتى بلغ نحره... وانصرف راجعا والمياه قد غورت وتعاونت عليه البربر...»⁽²⁾. ويضيف نفس المصدر أنه بعد قتل عقبة سنة 63 هـ / 682 م «زحف ابن الكهانة الى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس (وكان عقبة قد استخلفها على القيروان قبل خروجه الى السوس الأقصى) فقتلاه قتالا شديدا فانهزم ابن الكهانة وقتل أصحابه، وخرج عمر بن علي وزهير بن قيس الى مصر بالجيش لاجتماع ملأ البربر وأقام ضعفاء أصحابها ومن كان خرج معها من موالي إفريقية بأطرابلس»⁽³⁾. ومن المتفق عليه تاريخيا ان الذي قتل عقبة هو كسيلة⁽⁴⁾ أمير قبيلة أوربة

البرنسية، وهو الذي استفاد من هذه العملية حيث بقي أميرا على القيروان مدة خمس سنين، وهي المدة التي انشغلت فيها الخلافة عن المغرب، بما كانت تعانيه من المشاكل التي تسبب فيها موت الخليفة يزيد بن معاوية وفئة الضحاك بن قيس مع مروان بن الحكم بمرج راهط فيما كان يعرف بحروب آل الزبير⁽⁵⁾.

وبلاحظ هنا أن المصادر لا تذكر شيئا من شأنه ان يلقي الضوء على أوضاع المغرب المختلفة آنذاك ومن ثم لا يبقى أمام من يريد أن يتعرف عليها سوى باب الاستنتاجات، وفيما يخص الدور الذي تكون الكهانة قد لعبته الى جانب كسيلة آنذاك لا نجد سوى الأخبار التي انفرد بها ابن عبد الحكم عن «ابن الكهانة» في حين أنه لم يتحدث عن دور كسيلة ومن ثم يمكن وضع افتراضات منها:

أن يكون ابن عبد الحكم أطلق اسم ابن الكهانة على كسيلة، إما خطأ، أو عن قصد، في حالة ما إذا كان كسيلة يسمى ابن الكهانة وهذا لا يستبعد، خاصة اذا ما تأكدت صحة المعلومات التي بلغت حسنا عنها فيما بعد، من أنها تمثل أكبر قوة تُشكل خطرا على المسلمين، يخافها جميع الروم ويطيعها كل البربر، فمن باب الطاعة اذن يكون كسيلة قد تلقب «ابن الكهانة» ولم⁽⁶⁾ ٩٧ وخاصة اذا كان مثل هذا اللقب يجلب لصاحبه فوائد، وفي هذه الحالة قد لا تكون الكهانة لعبت أي دور في الأحداث التي وقعت بين عقبة وكسيلة أو كان لها دور ثانوي جدا لدرجة لم يلفت نظر المؤرخين فلم يسجلوا شيئا عنه

وقد يكون ابن الكهانة لعب فعلا دورا في تلك الأحداث، إما كطرف مستقل أو كحليف لكسيلة، ويؤيد هذا الافتراض ما أورده ابن خلدون عن لكهانة في قوله «وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط، قبله الأوراس، بإغرائها بربرة تهودا عليه»⁽⁷⁾. فما دامت تقري وتحرض على الحرب يمكن جدا أن تكون قد أرسلت جيشا للمساهمة في القتال وعلى رأس هذا الجيش أحد أبنائها، ونفس المصدر يذكر مرة أخرى أن «الكهانة لها بنون ثلاثة»⁽⁸⁾، سيطرت بهم على قومها، وعند حديثه عن هزيمة حسان لها، لم يختلف مع غيره من المؤرخين في قولهم انه كان لها «ابنان قد لحقا بحسان»⁽⁹⁾ دون أن يتحدث عن مصير الابن الثالث، قلعله قتل اذن في المعركة التي خاضها ضد زهير بن قيس وعمر بن علي بالقيروان. المهم أن أخباره انقطعت بعد ذلك ولم يبدأ الحديث عن أمه إلا في ولاية حسان بن النعمان.

ليس هناك ما يمنع منطقيا ان يكون العرب هم الذين أطلقوا عليها هذه التسمية، ولا شك ان اجتهد قويني هنا كعادته بهدف الى نحو أي أثر عربي مها كان نافها من تاريخ المغرب خدمة لسياسة بلده آنذاك المبنية على مبدأ «فرق تسد».

ولا يعرف عنها قبل الفتح الاسلامي وأثناءه سوى أنها كانت تحكم قبيلة جراوة البرية بجبل أوراس. وقد عاشت مائة وسبعا وعشرين سنة، قضت منها خمسا وستين في الحكم، الذي توصلت إليه على حساب أبنائها الثلاثة، الذين ورثوا الحكم عن سلفهم، اذ سيطرت عليهم أولا، ثم سيطرت على قومها بهم، ونجحت في إنجاز مهمتها تلك بفضل «ما كان لها من الكهانة والمعركة بغية أحوالهم وعواقب أمورهم».

وتذكر بعض المصادر أن جراوة قد تهودت قبل الاسلام لكن الباحثين في تاريخ المغرب لم يقتنعوا بذلك وراح بعضهم يشك في الأمر بينما راح البعض الآخر ينفيه تماما، وسيتبقى المشكل مطروحا طالما لم يعثر على دليل قاطع يؤيده أو ينفيه. فيما يخص تاريخ الكاهنة السياسي والعسكري يتطلب البحث فيه العودة الى ولاية عقبة الثانية⁽¹⁾ التي توغل أثناءها في بلاد المغرب متبعا طريق باغاية فالسن أو بلبش فمدينة أذنة، حيث مرّ بوادي السهر الذي يبعد عنها بثلاثة أميال ومن ثم اتجه الى تيهرت فجبال درن (أي جبال المصامدة)، ومنها الى طنجة فالسوس الأدنى وبعدها السوس الأقصى ثم قفل راجعا.

وفي حديثه عن هذا التوغل ذكر ابن عبد الحكم ان ابن الكاهنة البربري خرج «على أثر عقبة كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة الى السوس ولا يشعر بما صنع البربري، فلما انتهى عقبة الى البحر أفحم فرسه حتى بلغ لمحرة... وانصرف راجعا والمياه قد غورت وتعاونت عليه البربر...»⁽²⁾. ويضيف نفس المصدر أنه بعد قتل عقبة سنة 63 هـ / 682 م «زحف ابن الكاهنة الى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس (وكان عقبة قد استخلفها على القيروان قبل خروجه الى السوس الأقصى) فقتلاه قتالا شديدا قاتلهم ابن الكاهنة وقتل أصحابه، وخرج عمر بن علي وزهير بن قيس الى مصر بالجيش لاجتماع ملائكة البربر وأقام ضعفاء أصحابها ومن كان خرج معها من موالي إفريقية بأطرابلس»⁽³⁾. ومن المتفق عليه تاريخيا ان الذي قتل عقبة هو كسيلة⁽⁴⁾ أمير قبيلة أوربة

البرنسية، وهو الذي استفاد من هذه العملية حيث بقي أميرا على القيروان مدة خمس سنين، وهي المدة التي انشغلت فيها الخلافة عن المغرب، بما كانت تعانيه من المشاكل التي تسبب فيها موت الخليفة يزيد بن معاوية وفئة الضبحاك بن قيس مع مروان بن الحكم بمرج راهط فيما كان يعرف بحروب آل الزبير⁽⁵⁾.

ويلاحظ هنا أن المصادر لا تذكر شيئا من شأنه ان يلقي الضوء على أوضاع المغرب المختلفة آنذاك ومن ثم لا يبقى أمام من يريد أن يتعرف عليها سوى باب الاستنتاجات، وفيما يخص الدور الذي تكون الكاهنة قد لعبته الى جانب كسيلة آنذاك لا نجد سوى الأخبار التي انفرد بها ابن عبد الحكم عن «ابن الكاهنة» في حين أنه لم يتحدث عن دور كسيلة ومن ثم يمكن وضع اقتراضات منها:

أن يكون ابن عبد الحكم أطلق اسم ابن الكاهنة على كسيلة، إماما خطأ، أو عن قصد، في حالة ما إذا كان كسيلة يسمى ابن الكاهنة وهذا لا يستبعد، خاصة اذا ما تأكدت صحة المعلومات التي بلغت حسنا عنها فيما بعد، من أنها تمثل أكبر قوة تُشكل خطرا على المسلمين، يخافها جميع الروم ويطيحها كل البربر، فمن باب الطاعة اذن يكون كسيلة قد تلقب «ابن الكاهنة» ولم لا؟ وخاصة اذا كان مثل هذا اللقب يجلب لصاحبه فوائد، وفي هذه الحالة قد لا تكون الكاهنة لعبت أي دور في الأحداث التي وقعت بين عقبة وكسيلة أو كان لها دور ثانوي جدا لدرجة لم يلفت نظر المؤرخين فلم يسجلوا شيئا عنه

وقد يكون ابن الكاهنة لعب فعلا دورا في تلك الأحداث، إما كطرف مستقل أو كحليف لكسيلة، ويؤيد هذا الاقتراض ما أورده ابن خلدون عن لكاهنة في قوله «وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط، قبله الأوراس، بإغرائها برابرة تهودا عليه»⁽⁶⁾. فما دامت تغري وتحرض على الحرب يمكن جدا أن تكون قد أرسلت جيشا للمساهمة في القتال وعلى رأس هذا الجيش أحد أبنائها، ونفس المصدر يذكر مرة أخرى أن «الكاهنة لها بنون ثلاثة»⁽⁷⁾، سيطرت بهم على قومها، وعند حديثه عن هزيمة حسنان لها، لم يختلف مع غيره من المؤرخين في قولهم انه كان لها «ابنان قد لحقا بحسان»⁽⁸⁾ دون أن يتحدث عن مصير الابن الثالث، قلعله قتل اذن في المعركة التي خاضها ضد زهير بن قيس وعمر بن علي بالقيروان. المهم أن أخباره انقطعت بعد ذلك ولم يبدأ الحديث عن أمه إلا في ولاية حسنان بن النعمان.

ويظهر أن جراوة قد استقطبت قبائل افريقية، وخاصة البتر منها، بعد قتل كسيلة في معركة سهل ممس على يد زهير بن قيس البلوي الذي غادر افريقية بعد ذلك الى برقة حيث استشهد مع بعض أصحابه في معركة ضد الاغريق (أي البيزنطيين) الذين قاموا بغارة على سواحلها، وكان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان منشغلا بحروبه مع عبد الله بن الزبير، فلم يهتم بشؤون المغرب الا بعد ست سنوات.

حيث أن في الفترة الواقعة ما بين سنة 68 و 79 هـ / 687-699 م، أرسل الخليفة حسانا بن النعمان الغساني، على رأس جيش مصر، ثم بعث يأمره بالتوجه الى المغرب، وأطلق يده في أموال مصر يعطي منها ما يشاء لمن يرد عليه من الناس، وهذه الكيفية تمكن من تجنيد أربعين ألف مقاتل، سار بهم في اتجاه الغرب، ولما وصل الى طرابلس انضم اليه المسلمون الذين سبق لهم أن غادروا افريقية مع زهير بن قيس، وواصل طريقه الى القيروان ومنها زحف على قرطاجة فحاصرها وهدمها وطهر نواحيها من الروم الذين لجأوا الى بونة وإلى باجة.

بذلك تمكن حسان من القضاء نهائيا على سلطة البيزنطيين في بلاد المغرب، لأن المسلمين قبله، كانوا قد ركزوا جهودهم على الجزء الجنوبي من افريقية، ذلك الجزء الذي استقل به جرجير عشية فتح المغرب، وجعل من سبيلة (تقع على بعد 200 كلم جنوب غرب مدينة تونس) عاصمة له، أما الجزء الشمالي، من افريقية، الذي كان يحكمه ممثل للامبراطورية «Legat»، وعاصمته قرطاجة فإن فتحه لم يتم الا على يد حسان.

بعدئذ راح القائد العربي يستفسر عما اذا كانت هناك قوة أخرى تشكل خطرا على المسلمين فأخبر أن هناك امرأة يقال لها الكاهنة، بجبل أوراس، يطبعها كل البربر ويخافها كل الروم في افريقية، وهي تمثل أهم قوة باقية بالمغرب، وكانت تلك المعلومات كافية لحسان كي ينطلق نحوها مارا بمزماجة، وكانت قلعة لم تفتح بعد، وتحصن الروم بها آنذاك، فحصى وتركهم، مما يدل، ولا شك على انه كان يريد أن يسرع في سيره حتى يقاحي الكاهنة أو انه كان يريد أن يحافظ على كامل نشاط جيشه لخوض غمار المعركة الحاسمة في عملية فتح المغرب، واذا صح أحد هذين الافتراضين أو كما نما، فهو دليل على ان حسانا كان يقدر أهمية الخصم.

لم تبق الكاهنة مكتوفة الأيدي، عندما علمت بتقدمه اليها، بل تحركت هي الأخرى وقصدت مدينة باغاية، الواقعة على الجانب الشرقي من جبل أوراس فأخرجت من بها من الروم وهدمتها، خوفا من أن يتحصن بها المسلمون، ثم واصلت طريقها الى نهر اختلف المؤرخون في تسميته وان كانت غاليته تطلق عليه تسمية مسكيانة (يسمى أيضا نهر البلاء ووادي العذارى ووادي نيني) فترلت على هذا النهر، وكان حسان قد سبقها اليه، وقضى الطرفان ليلتهم على سروجهم، استعدادا لمواجهة أي احتمال.

في الصباح نشب القتال، وكان النصر حليف الكاهنة التي لاحقت المسلمين الى أن أخرجتهم من عمل قابس، ومن هناك عادت الى مقرها بالأوراس، وكانت قد أسرت ثمانين جنديا أحسنت اليهم وأطلقت سراحهم جميعا، فالتحقوا بقائدهم، الا واحدا، هو خالد بن يزيد القيسي أو العبسي، فقد أعجبت به كما يبدو ذلك من قولها له، حسب ما ورد في كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشي «ما رأيت من الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا أريد أن أرضعك فتكون أختا لولدي»، ثم أخذت قليلا من دقيق الشغير بريت ووضعت على ثديها واطعمت منه خالدا وولديها، وكان اسم أحدهما قويدر والآخر يمين⁽¹⁾، وهما اسمان عريان لا شك، حتى ولو صح ما ذكره ابن عذارى من أن أحدهما من أب يوناني والثاني من أب بربري⁽²⁾.

ويلاحظ هنا أن الفكرة التي طرحها الرائد كوفي «Gauvet» فيما يتعلق بالتجاء الكاهنة الى حيلة التبنّي هذه كي تعفي وراءها فكرة اتخاذها خليلا لها وكى تنجو من انتقادات قومها، لا تقوم على أي أساس تاريخي ولا تجد لها أثرا، ما عدا اعجابها به، وهذا ليس دليلا كافيا يسمح باستنتاج مثل هذا الرأي، خاصة اذا سلمنا بقول ابن خلدون من ان سنها كان آنذاك يتجاوز مائة وعشرين سنة، وأغلب الظن أن كبر سنها هذا هو الذي عاقها عن الزواج ولا نرى كيف يسمح لها باتخاذ الخلان. وقد بقيت الكاهنة بعد انتصارها تحكم بلاد المغرب مدة خمس سنوات «نفت خلالها العرب منها» ووجهت جنودها الى كل ناحية، فقطعوا الأشجار وهدموا الحصون وخرّبوا المدن ونهبوا الأموال حتى لا يبقى، في نظرها، ما يجذب العرب اليها، من مدن وذهب وفضة، وكانت هذه السياسة «سياسة الأرض المحروقة» معروفة في

القديم، غير أن المؤرخين بالغوا، بكل تأكيد، في وصفهم للبلاد على أنها كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة ومدائن منتظمة ثم لم يبق من هذا كله أي أثر، لكن ما تم من التخریب كان كافياً لإثارة الرأي العام وجلب سخط السكان على رئيسهم وجنودها لدرجة أن الكثير منهم هاجروا من البلاد إلى الأندلس وإلى جزر البحر الأبيض المتوسط⁽¹²⁾، كما انضم الكثير، ممن لم يهاجر، إلى حسان عندما عاود الكرة عليها سنة 74 هـ / 673-674 م.

وكان حسان بعد هزيمة مسكيانة، قد انسحب بالمسلمين من إفريقية، ولما خرج من قابس بعث بجير الحليفة عبد الملك بن مروان بما جرى، فرد عليه بأن يقف حيثما وافاه الجواب، فورد عليه في عمل برقة، فأقام بها يتظر مدة خمس سنوات. وقد استغل حسان فرصة وجود خالد بن يزيد مع الكاهنة، فاتصل به سرا يطلب منه تزويده بمعلومات عنها، وتمت بينهما مراسلات، في هذا الشأن، زود بها خالد قائده بما يحتاجه ثم تلقى هذا الأخير امدادات وأمر بالزحف على العدو، من الخليفة عبد الملك الذي التفت إلى المغرب من جديد، بعد قضائه على الثورات التي كانت قائمة ببلاد الحجاز والعراق، فسار صوب جبل أوراس، ولما وصل مدينة قابس «لقى أهله بالأموال والطاعة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء»⁽¹³⁾ ثم قصد قصبة ليختصر الطريق فأطلعه من بها واستولى على قسطنطينة ونفزاوة أيضاً. وما أن علمت الكاهنة بتقدم جيش المسلمين إليها حتى تحركت من جبلها، مثل المرة الأولى، للقاءه، وحسب ابن عبد الحكم فقد أحضرت خالدًا وطلبت منه أن ينطلق بابنيها إلى قائد المسلمين ليأخذ لها الأمان، ففعل خالد وبقيت هي وجنودها إلى أن اصطدموا بالمسلمين في معركة حاسمة انتهت بهزيمة جيشها وقتلها⁽¹⁴⁾. وقد قُلت بمكان يسمى «بئر الكاهنة».

ومن يتأمل كلام ابن عبد الحكم هنا يجد أنه لا يتماشى مع المنطق السليم، إذ أنه من الصعب أن يقتنع الإنسان بتصرف كهذا يصدر عن قائد أو رئيس يرضى لابنيه ما لا يرضاه لنفسه ولجيشه، اللهم إلا إذا كان مجنوناً أو درويشاً، حتى ولو كان الأمر كذلك فإن مثل هذا التصرف من شأنه أن يجلب إليه سخط جنوده ورجال دولته وبالتالي تحلهم عنه، ويقتضي المنطق هنا أن يكون التفكير بالطريقة التالية:

في حالة ما إذا كان القائد أو الرئيس مجنوناً أو درويشاً فإنه لا يفكر في خطورة النتائج التي يمكن أن تنجم عنها تصرفاته ومن ثم فإنه لا يفكر في إخفاؤها وفي هذه الحالة يستخفص الروح المعنوية لمقاتليه وتضطرب أحوال دولته لدرجة لا تسمح له بجمع جيش يمكنه أن يعتمد عليه في التصدي لاعدائه.

وفي حالة ما إذا كان الرئيس أو القائد سليم العقل، فاما أن يكون أمله قويا في الانتصار، وفي هذه الحالة يقدم على خوض غمار المعركة بكل امكانياته ويمكنه أن يفكر في أن يجنب ابنائه خطر التعرض للموت بأية طريقة دون أن يرمي بهم في أحضان العدو، لانه في هذه الحالة يفقدونهم أيضا بالإضافة إلى الدعاية السيئة التي ستشوه سمعته وسمعة عائلته وسمعة شعبه فما بعد.

أما إذا كان أمله في الانتصار ضئيلاً، أو رأى أن هزيمته محققة، فإنه في هذه الحالة يجب عليه أن يبحث عن مخرج لكل رعاياه بمن فيهم الجيش والأبناء، يفاوض بالجميع أو يخوض غمار الحرب بالجميع أو يستسلم بالجميع، دون أي تمييز لانه في حالة ما إذا ميز أبنائه عن جيشه فعني ذلك أنه اناني بل خائن ليس في مستوى الثقة التي وضعها فيه شعبه ولا يستحق منصب القيادة.

بناء على كل هذا يمكن القول ان الكاهنة، لو صح أنها تصرفت مثلاً ذكره ابن عبد الحكم فإنه لا يمكن تبرئها من أحد أمرين هما الجنون والدروشة أو الخيانة، وبما أنه يصعب على المرء أن يقتنع بهذا لأنه لا يمكن لقوم مها بلغت درجة رقيهم الحضاري أن يتقادوا لدرويش أو مجنون أو خائن، من هنا يصبح من الضروري تصور رسم خط آخر لسير الأحداث يختلف عما ذكره ابن عبد الحكم لكنه يتفق مع المنطق.

ويعتمد رسم هذا الخط على العلاقة التي تكون قد نشأت بين خالد وبين ابني الكاهنة فلا شك أن عملية التآخي التي ربطتهم بها الأم، مهما كان التزام كل طرف بها، قد أدت إلى تقاربها لدرجة تمكن الواحد من فهم الآخر، خاصة وأن مدة خمس سنوات كانت، ولا بد، كافية لذلك ومن ثم لا يستبعد أن يكون خالد قد أثر في ابني الكاهنة، عندما شرح لها الدين الإسلامي فأسلما على يديه وأخفيا ذلك على قومها لتجنب ما يمكن أن ينجم عن ذلك من مشاكل.

وإذا صح هذا الافتراض فإن ابني الكاهنة يكونان قد التجأ إلى حسان مع

خالد من تلقاء أنفسهم ودون علم من أمها، وهذا ما يفسر ثقة قائد المسلمين فيها، بعد هزيمة قومها، عندما أسند لكل منها قيادة ستة آلاف من قومها، وضمها إلى جيشه، ثم واصل فتح بلاد المغرب⁽¹⁵⁾.

وهناك اقتراض آخر يقضي بأن ابني الكاهنة لم يلجأ إلى حسان إلا بعد انهزام قومها، وفي هذه الحالة يمكن أن تكون أمها هي التي أرسلتها معه ليأخذ لها الأمان، بعد تفرق جيشها عنها، وفقدان كل أمل لها في الانتصار وفصلت هي عدم اتباعها إلى أن قتلت أو ماتت (لأن ذلك تم في ظروف غامضة) حتى لا يقال أن ملكة البربر استسلمت وتتفادى ما يمكن أن ينجم عن ذلك من عار على قومها.

وأخيرا يمكن أن يكون ابنا الكاهنة قد لجأ إلى حسان بعد الهزيمة وربما بعد قتل أو موت أمها وبعد أن تبين لها أن لا أمل في تحقيق أي انتصار على المسلمين فاقترحا على خالد أو اقترح عليهما أن يأخذ لها الأمان من حسان.

المهم أن هذين الابنين وجدا كل ترحيب وتقدير من القائد العربي، وكانت ثقته فيها كبيرة لدرجة أنه أمّن قومها «ومن انضوى إليهم من جبل أوراس»⁽¹⁶⁾، على شرط أن يعطوه اثني عشر ألفا منهم يضمهم إلى جيشه ليستكمل بهم فتح المغرب، فوافقوا وأسلموا على يديه، فجعل كل واحد من ابني الكاهنة على ستة آلاف منهم، وضمهم إلى صفوف جيشه وراح يستكمل فتح البلاد⁽¹⁷⁾، وهذا إن دل على شيء فأنما يدل على إعجاب حسان هؤلاء القوم الذين استطاعوا أن يلحقوا أول هزيمة من نوعها بالمسلمين في المغرب.

ولم يسجل المؤرخون، بعد ذلك، شيئا عن أخبار هذا الجيش الجديد، مما يدل، ولا شك، على اندماجه مع الجيش الإسلامي، وعلى أن ثقة حسان فيه كانت في محلها.

ولما أتى موسى بن نصير، الذي استخلف حسان على ولاية المغرب⁽¹⁸⁾ وفتح البلاد عين مولاة طارق بن زياد على طنجة وما والاها وترك معه جيشا مختلف المؤرخون في تقدير عدده لكن معظمهم يتفق على أن البربر فيه كانوا اثني عشر ألفا⁽¹⁹⁾، وحسب الرقيق القيرواني فإن هؤلاء «يمثلون العدة التي جعلها عليهم (على البربر) حسان بن النعمان»⁽²⁰⁾، فإذا صح ذلك فإن قوم الكاهنة أي جراويهم الذين كان لهم شرف فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد سنة 92 هـ / 711 م.

وخلاصة القول أن قبيلة جراوي التي كانت أقوى من تصدت للمسلمين أثناء فتحهم لبلاد المغرب وأول قوة الحقت بهم أول هزيمة من نوعها هناك بزعامة الكاهنة، كانت أيضا أكبر قوة ساندتهم في مواصلة عملية الفتح بزعامة ابني الكاهنة، كما أخذت على عاتقها مهمة فتح بلاد الأندلس بقيادة طارق بن زياد، ولا يبرر هذا التحول في موقفها من معارض إلى مؤيد سوى اعتناقها للإسلام حيث أصبحت تعتبره دينها وتعمل على نشره كما يقتضيها الواجب.

الهوامش

- (1) E. F. Gautier, Les Siècles obscurs du Maghreb, p. 245.
- (2) ابن خلدون العبر، ط. دوسلان، 11/2.
- (3) كانت ولايته الأولى سنة 46 هـ / 666-667 م. وهي الحملة التي أسس فيها مدينة القيروان، ثم عزله إلى مصر، مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة 51 هـ / 671-672 م، وعين مكانه أبا المهاجر دينار، لكن الخليفة معاوية سرعان ما ردّ عقبة على ولاية الرقبة (انظر يحيى هويدي، تاريخ فلسفة الإسلام، 35/1، أو ان الخليفة يزيد بن معاوية هو الذي ردّ سنة 65 هـ (الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان).
- (4) فتح الرقبة والأندلس، ص. 59-60، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964.
- (5) المصدر نفسه.
- (6) البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، ص. 74. انظر موسى لقيال، المغرب الإسلامي، ص. 53-54.
- (7) السلاوي، الاستقصاء، 39/1.
- (8) العبر، 10/2 (ط. دوسلان).
- (9) نفسه، ص. 11. (10) نفسه.
- (11) الرقيق القيرواني، تاريخ الرقبة والمغرب، ص. 58.
- (12) البيان المغرب، 37/1.
- (13) نفسه، 37-36/1.
- (14) ابن الأثير، الكامل، 32/4.

Conquête de l'Afrique, p. 341. En-Nouweiri.

- (15) فتوح، ص 64.
- (16) المالكي، رياض النفوس، ص 36، ابن الأثير، الكامل، 32/4، ابن عذاري، البيان، 38/1.
- (17) ابن خلدون، العبر، 11/2 (ط. دوسلان).
- (18) المالكي، رياض النفوس، ص 36، ابن الأثير، الكامل، 32/4، ابن عذاري، البيان، 38/1.
- (19) تختلف المصادر في تحديد تاريخ هذا التغيير في الفترة التي تتراوح ما بين 77 هـ و 96 هـ / 696-715 م.
- (20) ابن عذاري، البيان، 49/1، ابن خلدون، العبر، 220/6 (ط. بيروت). الرقيق القيرواني، تاريخ
المريجة والمغرب، ص 69.